الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

السبت 28 ذو الحجة 1434 هـ 2 نوفمبر 2013 العدد 12758

عناق فني بين العربية والعبرية في مهرجان «الأندلسيات الأطلسية» في مدينة الصويرة المغربية

وصل محطته العاشرة.. ويحتفي بالإرث الأندلسي في غناه الفني وتسامحه الديني

الصويرة: عبد الكبير المناوي

أكد حفل افتتاح الدورة العاشرة من مهرجان «الأندلسيات الأطلسية»، الذي تنظمه «جمعية الصويرة موغادور»، بشراكة مع «مؤسسة الثقافات الثلاث للمتوسط»، والتي انطلقت فعالياتها الليلة قبل الماضية، وتستمر على مدى أربعة أيام، أن هذه التظاهرة الفنية والثقافية، التي وصلت محطتها العاشرة، وتهدف إلى إبراز أصالة موسيقى تنبع نغماتها من أعماق ذاكرة المغاربة، وتوثق أواصر علاقات تاريخية متميزة، وتميز إرثا بغناه الفني وتسامحه الديني، لا تشكل، فقط، لحظة من الأحاسيس المتقاسمة، بل فضاء متميزا وفريدا، تستطيع فيه الموسيقى أن تعبر عن نفسها، بمختلف التعابير والمضامين.

خلال ليلة الافتتاح، عاش جمهور غفير، متعطش للفن الراقي، لحظات سعادة استثنائية، عبر برمجة من ثلاثة أشطر: شطر أول تعانقت فيه اللغة العربية واللغة العبرية، من خلال تألق فنانين شباب، مسلمي ويهوديي الديانة (بنيامين بوزاكلو، ومروان حاجي، وعبير العابد، وعازف الكمان إلعاد ليفي)، على إيقاع أوركسترا عبد الكريم الرايس، بقيادة الأستاذ محمد بريول، فيما نشط الشطر الثاني كل من مغنية الفلامينغو الإسبانية المتميزة، استريلا مورينتي، والفنان المغربي جلال شقارة وفرقته، في تكريم رمزي للجذور الأندلسية المشتركة، قبل أن تنشط الشطر الثالث، بـ«دار الصويري»، مجموعتا «غانغا» و«حمادشة».

وتألق المشاركون في الشطر الأول من حفل الافتتاح في أداء قطع من الموسيقى الأندلسية، زالت خلالها الحدود بين اللغتين العربية والعبرية، دون أن يهتم الحضور لديانة أو جنسية هذا الشاب أو تلك الشابة: وحده جمال الصوت وفتنة الكلام المطروز وروعة الموسيقى المنسوجة كانت تغري الأعناق بالتمايل وتدفع الأكف للتصفيق. فيما حرك تألق استريلا مورينتي، على الخشبة، في الحضور، حنينا إلى غرناطة، وكل الأندلس كمجال جغرافي وتاريخ يختصر تمازجا بين الثقافات، تردد صداها بين أنغام ورقصات الفلامنغو.

وأعاد وصول «مهرجان الأندلسيات الأطلسية» إلى محطته العاشرة تركيز الحديث عن قيمة العمل المنجز والأهداف من تنظيم تظاهرة، ببعد ثقافي وفني، تحتفي بالتعدد والتسامح والتعايش بين الديانات والثقافات، سواء عبر مد الجسور بين فضاء جغرافي عريض يضم البحر الأبيض المتوسط، ويمتد حتى الضفة الأخرى للمحيط الأطلسي، والذي يشكل الإرث الأندلسي الرابط الذي يجمع بين مكوناته، أو التشديد على أهمية الاحتفال بالذاكرة ونقل التراث ضمن ثقافة الاختلاف، والتعبير بصوت واحد عن غنى وعمق المغرب المتعدد، الذي يهتز، في انسجام، على أنغام موحدة لموسيقى بلا حدود.

وأخذا بعين الاعتبار أهداف المهرجان، والتي يبقى على رأسها «توثيق أواصر العلاقات التاريخية العربية الإسلامية اليهودية»، فإنه يحسب للتظاهرة أنها استطاعت أن تبرز نموذجا فنيا، غنيا ومتفردا ومتنوعا، في ماضيه، يمنح «مدينة الرياح» (اللقب الذي تعرف به مدينة الصويرة)، في الوقت الحاضر، فرصة استعادة واستحضار تلاقح ثقافي أثرى لحظات مهمة من تاريخ منطقة الغرب الإسلامي، أو، كما يقول إندريه أزلاي، مستشار العاهل المغربي، الملك محمد السادس، والرئيس المؤسس لـ«جمعية الصويرة موغادور»: «إنعاش الذاكرة واسترجاع نفحات حضارية مشرقة من فترات التعايش والتمازج الثقافي، بدل الصور الكارثية التي أصبحت تتصدر وسائل الإعلام».

وبالنسبة لأزولاي، فإن الأمور واضحة، تماما، حين يجري الحديث عن التعايش والتمازج الثقافي: «كلمات الحرية والعدالة والكرامة لا ينبغي أن يتمتع بها إنسان دون آخر. في الصويرة، لا نقوم بالسياسة، لكن الأمور واضحة في أذهاننا، ما نقوم به نقوم به عن وعي واقتناع وثقة في الإنسان وفي المستقبل. في نهاية المطاف، سيكون هناك سلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، ومهمتنا، في الصويرة، من خلال ما نقوم به، أن نجعل هذا الموعد قريبا أكثر».

ولأن التعايش والتمازج والتعدد الثقافي والغنى الحضاري امتداد في التاريخ وفي الجغرافيا، فإن مضمون التحولات التي يعرفها المغرب المعاصر، لم يكن له إلا أن يجد صداه في تقديم «أندلسيات» هذه السنة، حيث أشار أزولاي إلى «الدستور الجديد للمملكة، الذي أعاد الاعتبار لكل الثقافات وكل المكونات المغربية»، حين نص على أن «المملكة المغربية دولة إسلامية ذات سيادة كاملة، متشبثة بوحدتها الوطنية والترابية، وبصيانة تلاحم مقومات هويتها الوطنية، الموحدة بانصهار كل مكوناتها، العربية - الإسلامية، والأمازيغية، والصحراوية الحسانية، والغنية بروافدها الأفريقية والأندلسية والعبرية والمتوسطية».

على صعيد البرمجة، اختار المنظمون احتضان المواهب الصاعدة، التي تنهل من الموسيقى العربية والعبرية، بشكل يعكس غنى وتميز وتنوع الموروث الفني المغربي، في بعده الإسلامي واليهودي، حيث راهنت دورة هذه السنة، حسب المنظمين، على أن «تكشف لنا عن مواهب فنانين مغاربة، مقبلين من هنا أو هناك، نجحوا في الترسيخ والترجمة الفنية لأرقى صفحات الطرب والمخزون الموسيقي اليهودي المغربي».

وإلى الجيل الصاعد، يعرف البرنامج مشاركة عدد من الفنانين المعروفين، الذين سيحيون أمسيات هذه التظاهرة الفنية، بينهم عبد الرحيم الصويري ومحمد بريول ومحمد أمين الأكرمي وفرانسواز أطلان واستريلا مورينتي، إضافة إلى الفنان بنيامين بوزاكلو، وعازف الكمان إيلاد ليفي، صحبة فرقة «ديالنا»، التي تضم مجموعة من الموسيقيين المغاربة والتونسيين، بطابع تقليدي عريق يدمج بين الطرب الغرناطي والشعبي، ويمزج القديم بالحديث، مع مراعاة أصالة هذا الفن، وعازف البيانو أومري مور، والمغنية نطع القيام، سيلتقون على الخشبة إلى جانب فنانين مغاربة، من نفس الجيل، أمثال مروان حاجي، وعبير العابد، ونهيلة القلعي، وزينب أفايلال.

وعلاوة على عروض ما بعد الزوال، يعيش جمهور التظاهرة، خلال فترة ما بعد منتصف الليل، لحظة فتح أبواب «دار الصويري» لاستقبال المدارس الموسيقية والطوائف الفنية بالمدينة، من قبيل «غانغا تمنار» و«حمادشة الصويرة» و«الزاوية الدرقاوية» و«الزاوية العيساوية»، فيما تتضمن «صباحيات المنتدى»، تقديما للمسار الفني للسينمائية المغربية إيزا جنيني، من خلال عرض ثلاثة من أفلامها: «مدح وثناء» و«تراتيل المطروز» و«قرع الطبول»، فضلا عن برمجة «منتدى الأندلسيات»، الذي اختير له محور «ذاكرة وتاريخ: أهمية الرابطة، أهمية المكان.. بين الذاكرة والنسيان - إيصال».

إستريلا مورينتي، مغنية الفلامينغو، والفنان المغربي جلال شقارة، خلال حفل افتتاح الدورة العاشرة من «مهرجان الأندلسيات الأطلسية» بالصويرة المغربية

أوركسترا عبد الكريم الرايس، بقيادة محمد بريول، خلال حفل افتتاح الدورة العاشرة من «مهرجان الأندلسيات الأطلسية» («الشرق الأوسط»)

بنيامين بوزاكلو خلال حفل افتتاح الدورة العاشرة من «مهرجان الأندلسيات الأطلسية» بالصويرة المغربية

الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

الاحد 29 ذو الحجة 1434 هـ 3 نوفمبر 2013 العدد 12759

أصوات نسائية مسلمة ويهودية ومسيحية تحتفي في الصويرة بالإرث المشترك

نجمات أضأن سماء مهرجان «الأندلسيات الأطلسية «المغربي

بقدر ما أكدت الأصوات الرجالية علو كعبها، فأمتعت جمهور مهرجان «الأندلسيات الأطلسية» بأداء راق وحضور قوي، كانت الأصوات النسائية على الموعد، لتمنح الحضور، متعدد اللغات والأعراق والديانات، لحظات من المتعة الفنية، ومن الإبهار، الذي لم يملك معه المستمعون إلا التصفيق والوقوف مطولا عند انتهاء كل وصلة موسيقية، تقديرا واعترافا بالقيمة الفنية: أصوات نسائية مغربية (أو من أصول مغربية) أو إسبانية، لفنانات مسلمات الديانة، مثل عبير المالك، وزينب أفيلال، ونهيلة القلعي، أو يهوديات الديانة، مثل فرانسواز أطلان، ونطع المقام، أو مسيحيات الديانة مثل استريللا مورينتي.

لقاء نسائي مبهر وعناق فني بين العبرية والعربية والإسبانية، في مهرجان «أندلسي» الروح والهوى، في مدينة قال عنها الكاتب المغربي الراحل، محمد زفزاف، ذات شهادة: «مدينة الصويرة كالمرأة، والمرأة هي القفل والمفتاح معا»، وكتب عنها الشاعر المبدع محمد الصالحي، تحت عنوان: «الصويرة... تلوح كباقي الوشم».. إنك تجد «المدينة السعيدة»، كما يصفها الكاتب المغربي اليهودي الراحل إدمون عمران المالح «نائمة على سرير من حنين وتاريخ».

فعلا، كل شيء في الصويرة يحمل معاني الحنين إلى تاريخ مضى، انسل من بين الأصابع إلى درجة النسيان، قبل أن تتعهده المهرجانات الفنية واللقاءات الثقافية بالعناية، فتستعيده، مثالا ونموذجا في التعايش والحوار، ودافعا لـ«إنعاش الذاكرة واسترجاع نفحات حضارية مشرقة من فترات التعايش والتمازج الثقافي، بدل الصور الكارثية التي أصبحت تتصدر وسائل الإعلام»، كما يقول آندريه أزولاي، مستشار العاهل المغربي الملك محمد السادس، والرئيس المؤسس لـ«جمعية الصويرة موغادور».

تألقت عبير المالك (21 سنة)، القادمة من مدينة طنجة، حيث اكتشف فيها الحضور صوتا مبهرا، قادما بقوة نحو الأضواء والتميز، تماما كما كانت الحال مع نهيلة القلعي (14 سنة)، القادمة من فاس، وزينب أفيلال (23 سنة)، القادمة من تطوان، التي تألقت برفقة فرانسواز أطلان، الفنانة المتميزة والمديرة الفنية للمهرجان، التي أمتعت بعذوبة وسحر صوتها، وهي تؤدي صنائع من نوبات فن المطروز، مزجت ببراعة بين العربية والعبرية، وأمتعت بجمالية الحضور وروعة الأداء.

حضور الفنانة الإسبانية إستريلا مورينتي، مكن جمهور المهرجان من الاستمتاع بموهبة وقيمة الأداء القوي، لمغنية الفلامينغو، عبر أداء تميز بالشدة والرقة والصخب والهدوء والتغيير في خامة الصوت، وظفت خلاله إستريلا جميع الإمكانات الصوتية التي تمتلكها بشكل تعبيري متفرد.. هي الفنانة التي تنحدر من أسرة فنية، فوالدها هو مطرب الفلامينغو الشهير إنريكي مورينتي، ووالدتها هي راقصة الفلامينغو، أورورا ثيربونيل.

جمهور مهرجان «الأندلسيات الأطلسية»، الذي صفق بحرارة للإبداع المتميز، عبر مقاطع المطروز، ذلك الفن القائم على براعة الكلمات المنسوجة، في تناغم مستوحى من إرث فني أندلسي متعدد، استمتع بالحضور القوي لصوت أطلان، «الطري» و«الحارق»، في الآن نفسه، الذي يلامس القلوب، مؤكدا قيمة الصوت وتميز صاحبته.

وتعد أطلان من أبرز الأصوات القوية التي تميزت في أداء أغاني التراث العربي اليهودي الأندلسي، وقد اعتادت استضافتها في عدد من المواعيد الموسيقية العالمية الكبرى. وبفضل ثقافتها المزدوجة وتخصصها الفني وقوة صوتها وأسلوبها المميز في الأداء، واستفادتها من أصولها، وحسن توظيفها التراث الصوتي الموسيقي الأندلسي، استطاعت أن تحصل على جوائز بصيت عالمي.

الأصل المغربي للفنانة الشابة، يهودية الديانة، نطع المقام، كان له، هو الآخر، حضور لافت في أدائها الفني المتميز، حيث اكتشف فيها الجمهور وجها فنيا يندمج إلى أقصى حد مع الأداء والطرب، مستعيدا جذوره، خاصة عند أدائها أغنية «الدار البيضاء»، التي أهدتها، من الصويرة، إلى جدها، الذي عشق مدينة يصفها عدد من المغاربة بـ«قلب المغرب وكبرياؤه». في أغنيتها، أنشدت نطع المقام، بفرح غامر وجسد غارق في الحياة، تتلاعب به الإيقاعات المغربية الجميلة، أن «بلادي ما أحلاها.. بلادي ما أنساها». وحين تتحول الأغنية، في بعض اللحظات، إلى شريط يستعيد تاريخا مضى، بناسه وأحداثه ودفئه، نكون مع عبارة عربية اللغة بنكهة

عبرية، تقول: «عيشة لَذيذة (بتسكين اللام) وأيام سْعيدة (بتسكين اللام)... في الدار البيضاء».

وعن سر الحضور المتميز للأصوات النسائية المشاركة، قالت فرانسواز أطلان، لـ«الشرق الأوسط»، إن ذلك «يدخل ضمن الفلسفة العامة للمهرجان، الذي هدف، منذ بدايته، إلى إبراز أهمية الوحدة ضمن التعدد، التي ميزت تاريخ المغرب»، مشددة على أن «المغرب محظوظ بتنظيم (مهرجان الأندلسيات المتوسطية)، الذي لا يمكن أن تجد له مثيلا في أي مكان آخر من العالم، يتقاسم، خلال فعالياته، فنانون مغاربة، من الديانة اليهودية ومن الديانة الإسلامية، الخشبة نفسها والمتعة الفنية نفسها، مستعيدين تاريخا ميز منطقة الغرب الإسلامي، عاش خلاله اليهود والمسلمون في وئام وتناغم وتقاسم».

ورأت أطلان أن ما يقدم في الصويرة يبقى أشبه بـ«المعجزة»، كما أن الحدث «حقق حلم عدد من المغاربة، ذوي الديانة اليهودية، في زيارة المغرب والمشاركة في مهرجانات بلد لم يقطعوا معه الصلة، حيث يتمكنون من التشبع بثقافة المغرب وإغناء رصيدهم الفني، من خلال اللقاء برموز الموسيقى الأندلسية والتعرف إلى شبابها الصاعد. فإلعاد ليفي، مثلا، ينحدر من (تارودانت) ونطع المقام تنحدر من (تنغير)، بالمغرب، ومشاركتهما في مهرجان الصويرة، مكنتهما من العودة إلى الجذور والتعرف، عند قرب، على مميزاتها الثقافية والحضارية».

وعن هذا العناق الفني بين اللغات والديانات، قالت أطلان: «ما تأكد من خلال تعامل الفنانين فيما بينهم وطريقة تفاعل الجمهور مع الحفلات المبرمجة أن كل واحد منا يحمل داخله شيئا من الآخر، فداخل المغربي المسلم يوجد شيء من اليهودية ومن العبرية، وكذلك المغربي اليهودي، يوجد داخله شيء من الإسلام وكثير من العربية. وقبل كل هذا وبعده هناك المغرب؛ الأرض التي نتقاسمها جميعا، الغنية بحضارتها وتسامحها وطريقة التعايش التي ميزتها، على مدى عصور من تاريخها».

ولم يقتصر الحضور النسائي اللافت، الذي عرفته الدورة العاشرة من مهرجان «الأندلسيات الأطلسية»، على الغناء، بل برزت، أيضا، فقرة «صباحيات المنتدى»، حيث جرى تقديم المسار الفني للسينمائية المغربية، يهودية الديانة، إيزا جنيني، من خلال عرض ثلاثة من أفلامها: «مدح وثناء» و«تراتيل المطروز» و«قرع الطبول». إيزا، التي جعلها إحساسها بالانتماء إلى البلد الذي قضى فيه أجدادها وآباؤها حياتهم وقضت فيه طفولتها، تنجز ما يناهز 17 شريطا وثائقيا حول المغرب وثقافته. وولدت إيزا سنة 1942، بالدار البيضاء، وانتقلت إلى فرنسا سنة 1960، وهناك درست الآداب واللغات، وفي منتصف عقد الثمانينات من القرن الماضي، انخرطت في الإخراج السينمائي، خاصة الأفلام الوثائقية. ومن أبرز أفلامها نجد: «البحث عن أولاد مومن»، الذي تحكي فيه تاريخ عائلتها التي كانت تقطن منطقة «أولاد مومن»، قرب «واد الحجر» بنواحي مراكش، التي انتقلت إليها من منطقة الرحامنة، قبل أن تنتقل منها إلى بلدة الكارة، ثم إلى الدار البيضاء، لتوزعها مناطق مختلفة من العالم، من المكسيك إلى أوروبا، مرورا بكندا.

آندريه أزولاي مستشار العاهل المغربي الملك محمد السادس والرئيس المؤسس لـ«جمعية الصويرة موغادور» متفاعلا مع فقرات من الدورة العاشرة لـ«مهرجان الأندلسيات الأطلسية» («الشرق الأوسط»)

الشابة المغربية نطع المقام

زينب أفيلال

إستريلا مورينتي مغنية الفلامينغو

فرانسواز أطلان

الصويرة: عبد الكبير الميناوي

الاتحاد الإشتراكي
السبت/الأحد 9/10 نونبر 2013 العدد 10.546
الموقع الإلكتروني: http://www.alittihad.press.ma البريد الإلكتروني: Jaridati1@Gmail.com

الدورة العاشرة لمهرجان «الأندلسيات الأطلسية» بالصويرة..

المغرب حين يفلح في صناعة الجمال

لحسن العسبي

الفنان الفلسطيني ماهر ديبة رفقة المطربة اليهودية من القدس نيتا الكيام يغنيان «منتصب القامة أمشي»

من ندوات المهرجان التي ترأسها آندري أزولاي

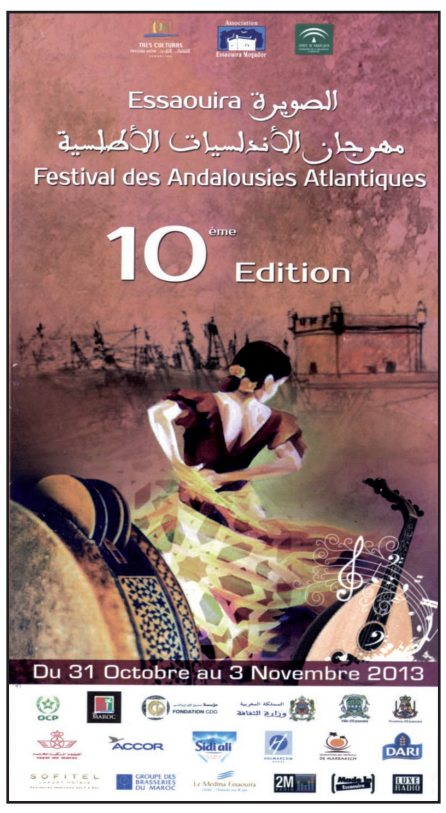

ملصق المهرجان

أن يقف على منصة الغناء مطرب فلسطيني قادم من القدس (ماهر ديبة) ومطربة يهودية من أصول مغربية أمازيغية، ولدت بالقدس الغربية (نيتا الكيام من تنغير)، مرفوقين بعازفين من أصول مغربية يهودية أمازيغ ولدوا بالقدس (إلياد ليفي على الكمان من تارودانت/ آميث كوهين على البيانو من تيزكي قرب تازناغت/ ناتانيل بن شترتيت على الدربوكة)، ويغنوا بصوت واحد الأغنية الخالدة للمطربة اللبنانية فيروز «القدس لنا»، ثم أغنية مارسيل خليفة «منتصب القامة أمشي»، وبعدها ريبرتوار من الأغاني المغربية للأندلسي والغرناطي، فذلك لا يحدث سوى في المغرب وفي الصويرة. وبدون تردد يعتبر ذلك الحفل المسائي الذي تصادت فيه الأرواح والأصوات بشغف رفيع على جنبات «دار الصويري» العتيقة، أرفع لحظات الدورة العاشرة لمهرجان «الأندلسيات الأطلسية» الذي تنظمه سنويا جمعية «الصويرة موغادور».. في تلك اللحظة انتصر الإنسان، عبر الموسيقى للقضايا العادلة، وفي تلك اللحظة أصبح لمعنى الجملة القوية التي كان قد أطلقها في أولى الجلسات العامة للنقاش المفتوح بذات الدار، مستشار الملك محمد السادس، أندري أزولاي (مهندس اللقاء كله، وابن الصويرة الوفي)، حين قال: «لا معنى ليهوديتي ما دام الفلسطيني لا وطن له ولا دولة مستقلة له»، أصبح لها معنى باهر قوي. لقد وقف أبناء للحياة من أصول مغربية يهود، ولدوا بالقدس، وكبروا في دولة إسرائيل، وتعلموا في مدارسها، ولأن لهم سندا ثقافيا مغربيا أصيلا، ولهم رأي أحرار في التعبير عنه، وقفوا كي يغنوا بذات الصوت وبذات القوة في الحرارة أغنيات عربية خالدة ممجدة للحرية من أجل القدس وفلسطين. فلم يتعب الخاطر من طرح السؤال على ذاته: ما هذا الذي يحدث أمامي؟. ما هذا الجمال الإنساني الرفيع؟ ما هذا الفرح المنتصر للحق والعدل والحرية؟. وفي لحظة التقت العين بالعين مع ابن الصويرة السيد أندري أزولاي، وكما لو أنه يذكرني بجملته الأثيرة دوما: «هذا هو المغرب، هذه واحدة من ملامح قوته».

كان ذلك الدرس هائلا في سماء الصويرة، وفي مكان ما كما لو أنه قد دخل عند عتبات «دار الصويري» كل أبناء المدينة المغاربة اليهود القدامى، منذ قرون غابرة، يتقدمهم تجار السلاطين المشهورين ومؤسسوا مدراس الفقه اليهودي المغربي في معابد آقا (قرب طاطا) وفي آسفي والصويرة وتارودانت ودمنات وتاهلة، وشرعوا يرددون مع حفدتهم الذين حملتهم حسابات سياسية عالمية إلى أرض بعيدة (هي لكل الديانات السماوية تعبدا وتساكنا في نهاية المطاف)، ذات الأغنية المنتصرة للعدل والحرية والمقاومة. وحين جلست إلى المطربة الشابة نيتا الكيام، بأمازيغيتها وبملامحها التي تشبه أمازيغ سوس، فهمت أنها ورفاقها من الجيل الجديد من اليسار من مناصري السلام بإسرائيل وأنهم في قلب القدس ينادون بحق الشعب الفلسطيني في الحرية والإستقلال، وأنهم هناك يؤسسون لعمل مشترك مع جمعيات فلسطينية مقدسية. بل أكثر من ذلك أن حضورهم إلى المغرب (لأول مرة) قد جاء ضمن وفد جمعية القدس للتنمية والأبحاث الفلسطينية وأنهم يعملون منذ 2007 ضمن «أكاديمية القدس للموسيقى» التي يترأسها المطرب الفلسطيني ماهر خليل ديبة، الذي شاركوه الغناء بالصويرة. وحين تسأل المطربة «نيتا الكيام»، رفقة خطيبها «آميث كوهين»، وهي تطلب بإلحاح أن أكتب لها كلمات الأغنية الخالدة لمجموعة إزنزارن عبد الهادي إكوت «إمي حنا» حتى تغنيها في القدس لجمهور واسع من اليهود من أصول مغربية أمازيغية، حين تسألها: ما هو المغرب بالنسبة لك؟. تفيض العين بالدمع فيها قبل الجواب وتقول لك بلا تردد، باللكنة المغربية الدارجة: «بلادي وبلاد جدادي». الجميل أكثر، أن تلك المطربة المغربية اليهودية، حين تغني بخامات صوت رفيعة، ريبرتوار الأغنية المغربية للملحون، تسمع، حين تغمض عينيك، ذات صوت المطربة المغربية، ابنة مدينة صفرو «زهرة الفاسية»، مع قوة خاصة في مخارج الحروف وفرح طفولي بلا ضفاف وهي تلعب بالكلمات وتتحكم في مخارج الحروف بذات اللثغة التي تميز نطق اليهود المغاربة للدارجة المغربية. مثلما أدت أغاني صوفية عاشقة من ريبرتوار موسيقى الآلة المغربية الأندلسية.

كانت الريح قوية باردة في ليالي الصويرة، وكانت النوارس بالمئات تحلق في الفضاء، وتطلق أصواتها في ما يشبه عزفا آخر للبحر على مدار اليوم، حيث تكاد لا تسمع في المدينة غير صوت الموج القادم من بعيد وصوت النوارس القوي المنادي، الذي لا يقطعه سوى آذان الصوامع للصلاة وصوت جرس الساعة الإنجليزية القديمة الهائل، الذي يدق صافيا كل ربع ساعة بانتظام بديع منذ أكثر من قرنين من الزمان. كانت الريح قوية باردة، حين يتسلل إليك صوت آلة الكمان مجروحا حزينا متواصلا من أول زنقة القاهرة وأنت تدلف إلى مقر «دار الصويري» عبر الباب العتيقة «باب السبع»، هناك حيث يتواشج النقاش الفكري والسياسي الرفيع الجريئ الصريح (بما فيه حتى المنتقد الغاضب)، مع انبراء صوت فني ليقول كلمته غناء أو عزفا أو إنشادا. حينها تكون القاعة الفسيحة لدار الصويري، تخلق بصمتها أنها منتصرة في الأول والأخير للفرح بالحياة في معناها البناء والإيجابي. وفي روح مماثلة، يحدث أن يطلب الكلمة بإلحاح واضح، سفير البرازيل بالمغرب (فريدريكو دوكي استرادا ماير)، كي يخبر الحضور أنه جاء إلى الصويرة زائرا منذ أكثر من سنة، يدفعه فضول الإكتشاف للوقوف عند نقطة التشابه بينها وبين مدينة أخرى بالبرازيل إسمها «الصويرة» بالأمازون، فأبهر بالمكان وبقصته في التاريخ، وكان ذلك سببا في أن يكتشف جزء من برازيليته بالمعنى التاريخي، حين وقف على معطى تواجد دار للقنصل البرازيلي بالمدينة منذ القرن السابع عشر، وأنه بعد البحث توصل إلى أن أكثر من 20 بالمئة من يهود البرازيل هم مغاربة، وأن أغلبهم استقروا في منطقة الأمازون وهناك حافظوا على هويتهم الثقافية المغربية (أكلا ولباسا وموسيقى وعادات دينية).

ثاني الحظات القوية في الدورة العاشرة من مهرجان «الأندلسيات الأطلسية»، ليس فقط اكتشاف طاقات شابة واعدة، مثل الطفلة نهيلة القلعي (12 سنة)، التي كانت تدير بحنكة الكبار المحترفين فرقة جمعية نساء فاس (تديرها السيدة إكرام الإدريسي السباعي والأستاذ مصطفى عمري)، وأدت أغاني في طرب الملحون بصوت قوي وهبته السماء خامات هائلة، جعلت الحضور يقف لها بالتصفيق لأكثر من سبع دقائق، وهي غارقة في خجلها الطفل إلى جانب شقيقها الذي كان يردد معها بعض المقاطع وهو يعزف على آلة الدف أو آلة الكمان. وليس فقط اكتشاف فرقة الموسيقيين المغاربة اليهود القادمين من القدس، خاصة العازف على آلة الكمان «إلياد ليفي» (والده من تاردوانت، وهو الذي حرص على تعليمه موسيقى بلده بإصرار ويعزف آلة الكمان على طريقة طرب الآلة الأندلسية أي على الركبة وليس على الكتف)، والعازف على آلة البيانو «عمري مور»، الذي جعل الفرقة كلها تنجح في عزف طرب الآلة والغرناطي لكن بطريقة مبتكرة، أقرب للجاز على الطريقة المغربية الأندلسية، مما قد يحول ذلك العمل إذا وجد من يدعمه ويحميه ويشجعه ويفتح أمامه آفاق العالمية أن يصبح مدرسة مغربية موسيقية رائدة في كل الأصقاع. وليس فقط الإحترافية العالية لأوركسترا الحاج عبد الكريم الرايس الشهيرة برئاسة الفنان الأستاذ محمد بريول، التي لو قلنا أبدعت فكما لو أننا نقول «السماء فوقنا»، وكيف أنها جعلتنا نكتشف أصوات المطربة الشابة عبير العابد ومروان حجي وبنجمان بوزاغلو (القادم من باريس، والذي حكى كيف كان والده يلزمه بأداء الأغاني المغربية الأندلسية منذ صغره، مما جعل رفاقه يتندرون منه، قبل أن يصبحوا اليوم من كبار المعجبين به في فرنسا لأنه يمتلك ما لا يمتلكون من خصوصيته الثقافية المغربية)، ثم مشاركة خاصة رصينة ورفيعة وعالية القيمة للمطرب المغربي عبد الرحيم الصويري، الذي كان آخرا هناك في الصويرة، رصانة واحترافية وعلو كعب فني وامتثالا لواجب الأداء الرفيع لطرب الآلة مما جعل القاعة تقف له طويلا بتصفيق ممتد صادق.. وليس فقط، الليلة البادخة لفرقة التمسماني الأندلسية التطوانية برئاسة الأستاذ محمد الأمين الأكرمي، حيث العزف مختلف عن باقي المدارس المغربية الأندلسية الفاسية والرباطية، مختلف في أثر الكمان وفي رقة التواشي وفي مخارج الحروف الشمالية ذات المد الأطول والوضوح في التعبير، وحيث الأداء الغنائي الرفيع للمطربة الشابة زينب أفيلال، التي تصادت وتواشجت معها المطربة المغربية فرانسواز أتلان (الرهيبة في أدائها على مستوى قوة الصوت ومخارج الحروف وهي المديرة الفنية للمهرجان)..

ثاني اللحظات القوية، ليس فقط ذلك كله، بل اللحظة التي صنعتها فرقة جلال شقارة التطوانية (إبن أخ الفنان المغربي الكبير الراحل عبد الصادق شقارة)، رفقة المطربة الإسبانية «إستريلا مورينتي». هنا، وليلتين متواصلتين، كان الصوت الرهيب جمالا وروعة وفنية لابنة الأندلس، الخارقة الجمال الرباني، مورينتي، قد حول قاعة الرياضات المغطاة الكبيرة إلى قطعة كاملة من الفرح الإنساني الرفيع بالفن الأندلسي الإسباني الرفيع. كانت خامات الصوت، ببحته الأسيانة، بقوته الرهيبة، بحساسيته الغاية في الرقة واللين، باندماج المطربة الروحي في لحظة الإنشاد، بتساميها في الأداء مثلما يتسامى المتعبد الصوفي في مدارج الحلول، قد جعل الجميع (وهم بالمئات من جمهور الصويرة المؤدب جدا، المنصت عميقا، بلا ضجيج ولا ضوضاء وفي انضباط مبهر، رسالة عن ثقافة سلوكية عمومية لأبناء الصويرة)، يلجون إلى براح كامل من الجمال الفني، يستحيل أن يتكرر بذات التفاصيل مرة أخرى، ويستحيل أكثر أن تفلح اللغة والكلمات في نقل ألقه وجماله الرباني الرفيع. كانت أصابع فنانة مدينة غرناطة (من مواليد 1980) تكاد تسبقها في خواء الفضاء لتستل القوة من السماء كي توصل الفنانة بجوارحها كلها ما توده من جمال في الأداء وهي تغني الأغاني الخالدة للفلامينغو الأندلسي الإسباني، وكانت بحة الصوت الرهيبة جمالا تمنح للأنثى تلك أن تكون سيدة. وأن تنحني لها هامات الإعجاب وأن تخرج من أعماق أعماق الوله صرخات المتفرجين الذين يطلقون عبارة مشتركة «الله»، عنوانا على أن السيدة تلك عزفت على وتر رفيع للمحبة للفن في دواخلهم. وحين وقفت القاعة كلها في تصفيق حاد طويل متواشج لأكثر من 10 دقائق بلا انقطاع، كانت إستريلا مورينتي (سليلة عائلة مورينتي الموسيقية الأندلسية الإسبانية الشهيرة، فأمها راقصة فلامينغو شهيرة هي أرورا كاربونيل ووالدها هو المطرب الشهير إنريكي مورينتي)، تنحني خجلا والدمع يملأ مآقيها، وفي لحظة انخطاف رفعت يدها اليسرى بعد أن وضعتها على قلبها إلى السماء، كما لو أنها ترسل قبلة قلب لروح والدها هناك الذي توفي يوم 13 دجنبر 2010 عن عمر 58 سنة.

هل يمكن أن ينسى الخاطر أمام لحظتين قويتين، هائلتين، مثل هذه، للدورة العاشرة لمهرجان «الأندلسيات الأطلسية» (أي لحظة غناء مطرب فلسطيني ومطربة يهودية من أصول مغربية لأغاني فيروز ومارسيل خليفة. ثم لحظة غناء إستريلا مورينتي)، تشريف سيدة مغربية جليلة، للمهرجان طيلة صباحاته الثلاث، من خلال عرض أشرطتها الوثائقية الرفيعة كقيمة تاريخية توثيقية، وكعمل جمالي فني رفيع، هي المخرجة المغربية اليهودية إيزا جانيني؟. هل يمكن للخاطر أن ينسى ذلك، هل يجوز له حتى؟. لقد شكلت أشرطتها الثلاث (مديح الروح/ المطروز/ دق الطبول)، لحظة فارقة لسفر آخر في الزمن، حيث تتبعنا تاريخ الصوفية الشعبية بالمغرب من خلال موسم مولاي ادريس زرهون بمدينة زرهون في السبعينات من القرن الماضي. مثلما تتبعنا قصة أول تلاق بين الحاج عبد الصادق شقارة بباريس سنة 1978، مع الحاخام المغربي حاييم لوك، لأداء الإرث الغرناطي الأندلسي القديم المعروف ب «المطروز». وكانت تلك لحظات متعة مفارقة أخرى في المهرجان.

في مكان ما، لا يزال صوت «إستريلا مورينتي»، الحزين وهي تناجي والدها الراحل، يتصادى عاليا في سماء الصويرة، تردده النوارس هناك بذات الشغف الإنساني الرفيع، حين رددت قائلة:

«يا عكازي الذي لا يبلى..
سأتعلم مثل حبة رمل في شاطئ مالقا
كيف كنت تمشي جنب الموج..
وأكبر في صمت الرمال.
أحبك بمذاق مالقا،
أنت الرمل المحيط دوما ببحار حياتي
أفتقدك
وأفتقد نداءات «أولي» للثيران الدائمة الحياة..».(×)

هامش:
(×) ترجمة مقطع هذه الأغنية أنجزه الزميل عزيز الساطوري

وقف أبناء للحياة من أصول مغربية يهود، ولدوا بالقدس، وكبروا في دولة إسرائيل، وتعلموا في مدارسها، ولأن لهم سندا ثقافيا مغربيا أصيلا، ولهم رأي أحرار في التعبير عنه، وقفوا كي يغنوا بذات الصوت وبذات القوة في الحرارة أغنيات عربية خالدة ممجدة للحرية من أجل القدس وفلسطين

كانت أصابع فنانة مدينة غرناطة (من مواليد 1980) تكاد تسبقها في خواء الفضاء لتستل القوة من السماء كي توصل الفنانة بجوارحها كلها ما توده من جمال في الأداء وهي تغني الأغاني الخالدة للفلامينغو الأندلسي الإسباني، وكانت بحة الصوت الرهيبة جمالا تمنح للأنثى تلك أن تكون سيدة

جوق التمسماني من تطوان

جوق عبد الكريم الرايس من فاس

إيزا جانيني

نيتا الكيام رفقة آميت كوهين ببيتهما بالقدس والعلم المغربي في غرفة الجلوس

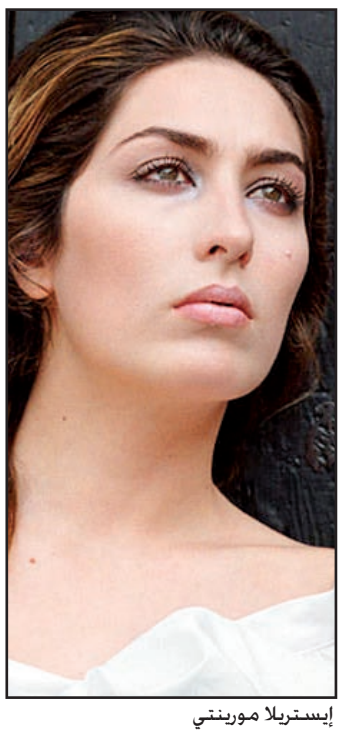

إيستريلا مورينتي